التناص الذاتي والأسطوري في شعر ظافر الحداد السكندريّ

إعـــداد

أ. أسماء جمعة محمد جاد

التمهيد

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق ومعلم الناس الخير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا، ثم أمَّا بعد.

فلقد عرفت الساحة النقدية ظهور العديد من المصطمحات النقدية التي شغلت اهتمام الباحثين والدارسين، ومن أبرزها مصطلح التناص، فمنذ توظيفه من طرف الباحثة البلغارية جوليا كرستيفا تلقفه الدّارسون العرب، الذين توسعوا في دراسته تنظيرًا وتطبيقًا، وهو ما أسهم في تعدد المؤلفات النقدية المتخصصة فيه، وثرائها.

والتناص مصطلح غربي حديث الولادة، إلا أن أصول مفهومه وجذوره باعتباره ظاهرة تداخل للنصوص مع بعضها البعض عن طريق الاستشهاد او التضمين أو الاقتباس كانت موجودًا في النقد العربي القديم الذي عرف دلالة هذا المصطلح، فالتراث العربي القديم كان ذاخرًا باستخدام مفهوم التناص، إلا أن ذلك لم يرقَ إلى أن يكون ظاهرة لها أشكالها وقواعدها.

والتناص يعد من النظريات النقدية الحديثة التي حررت النص الأدبي من فهمه بطريقة فردية ليصبح متعددًا من حيث الدلالات والمعاني، وقد وضعت هذه النظرية النصَّ الأدبي في محور اهتمامها ونظرت إليه على أنه نقطة تلتقي فيها العديد من المعاني والأفكار التي قيلت قبله، ومن ثمَّ حطمت فكرة أصالة النص.

لقد ساهمت هذه النظرية في الحد من ثبات المعنى وتأبيده فلم يقف النص مع هذه النظرية كونه معنى واحد ثابت متجذر ومقصود من قِبَل المؤلف، بل اصبح قابلًا لإعادة صياغته بطرق وأساليب مختلفة بتعدد القراء والنقاد، فمن خلال ثقافة القارئ

الناقد وسعة اطلاعه تمكَّن من إبراز تداخل النصوص مع بعضها وكيفية توظيف النص القديم في النص الحديث بما يضمن إثراء النص الحديث المتناص، وكشف النصوص الغائبة لمعرفة آليات توظيفها ودلالاتها وبذلك يتم تنوّع الفهم وتعزيزه.

هذه النظرية التي نحن بصددها هي عبارة عن جزء من مشروع نقدي شامل يهتم باستقراء تراثنا الأدبي من جديد وإبراز قيمته وتوظيفه بشكل جيد مُثرٍ وفق آليات ومنهجيات نقدية فاحصة، كما أن هذه النظرية تعتبر وسيلة لحل الإشكالات النقدية التقليدية في تراثنا كالسرقات الشعرية لتكشف المواطن التي تقاطع فيها الشعراء مع غيرهم وثقافتهم المتأصلة فيهم سواء كانت هذه الثقافة دينية او تاريخية او أدبية لتظهر كيفية استفادتهم منها، ومن ثم يصبح استدعاء النصوص قيمة فنية توضح ثقافة الشاعر الواسعة ومدى اطلاعه على تراثه القديم واستفادته منه وتوظيف تلك الاستفادة.

والتناص الشعري هو استحضار نصوص شعرية من شعراء سابقين وتوظيفها في الشعر عن طريق الاقتباس الكامل او المُحَوَّر أو الجزئي أو الامتصاص أو الإشارة أو الأعلام، وهذا يدل دلالة واضحة على استقراء الشاعر مع من سبقوه من الشعراء وسعة اطلاعه على التراث الشعري القديم.

ومن خلال تناول شعر ظافر الحداد بالقراءة والتمحيص نلاحظ أن ظاهرة التناص من أبرز الظواهر الشائعة في البناء الفني في شعره؛ إذ يستحضر شعره نصوصًا دينية، وتاريخية، وأسطورية، وأدبية، سواء بصورة ظاهرة أم خفية. وذلك لأن ظافرًا أصبح – بوعي منه أو بدون وعي – يمتلك القضية في بناء نصه الإبداعي دون الإحساس بخجل من بروز الآخر ومزاحمته لصوته الخاص كما أنه يعي تمامًا أن النصوص الأخرى أيًّا كان حجمها تُسهم في بث الروح في نصه الخاص تُثريه وتزيد من إبداعه.

ومن ثمَّ، فإن شعر ظافر الحداد يعد بنية خصبة للدراسة؛ وذلك لمحاولة الوقوف على مدى انفتاحه الشعري مع النصوص السابقة وكيفية استحضار النصوص الغائبة وامتصاصها.

التناص الذاتي

تناص المفردات والتراكيب

تناص الموضوعات

التناص الذاتي

يعتمد ظافر الحداد على نصوص سابقة له مشكلاً بذلك نصًا جديدًا، ليعبر من خلاله عن رؤى وأفكار جديدة، ويتناص ظافر مع ذاته في المضامين والأساليب والصور والمفردات التي تخدم أفكاره الشعرية .

ويقصد بالتناص الذاتي: "هو أن يكون الأديب ماتحا من ذاته، متناصا معها، فيصبح هو صاحب النص الحاضن والغائب في آن، سواء دخل النص الواحد، أو من خلال نصوص أخرى سابقة على نص الكتابة للأديب نفسه، بحيث تتقافز نصوص هذا الأديب أمام القارئ دونما إعمال جهد أو تعب"[١]

ويشيرالدكتور سعيد يقطين إلى :"أشكال التفاعل النصي القائمة بين الكاتب ونصوصه الخاصة (الذاتي) مؤكدًا على أن النصوص تختلف سواء وهي تعيد التجربة الكتابية نفسها، أو تخوض في تجربة أخرى، لذلك فالمعيار الأساس يظل كامنًا في النصوص التي يكتبها الكاتب في علاقتها، .ببعضها وفي علاقتها بالبنية النصية التي أنتجت فيها "[٢].

ونجد في كثير من قصائد ظافر تكرارًا لبعض الصور الفنية، أو عبارات تعود للشاعر نفسه، حيث استحوذت على اهتمامه، فنراها تُمتزج بالعديد من أعماله، ونلاحظ أن

---

[١]) د/ محمد دياب محمدغزاوي، المعارضات النثرية، أطواق الذهب للزمخشري نموذجا ، دراسة أسلوبية إحصائية مقارنة،دار الثقافية للنشر،٢٠١٦م، ص١٦٦،ص١٦٧.

[٢]) . ينظر، سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ط٣، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، ٢٠٠١م، ص١٢٣.

الشاعر فعل الشيء نفسه في ديوانه، ويشترط في هذا النوع من التناص على الكاتب حتى يكون مبدعًا، أن لا يقف عند حد دلالاته القديمة ومعانيه الثابته دون ابتكار أو تجديد ، بل عليه تجاوز التجربة السابقة إلى كتابة أكثر انفتاحا على الخلفيات النصية.

وقد عرفه البعض: "علاقات تعقدها نصوص الكاتب بعضها مع البعض الآخر، والتي تكشف بدورها عن الخلفية النصية التي يتعامل معها الكاتب"[1]،والتناص الذاتي مهم للغاية في معرفة ثقافة الأديب ومصادره، وكيفية تناص إنتاجه تناصًا ذاتيًا.

تناص المفردات والتراكيب

ومن بين هذه التناصات الذاتية قول ظافرفي مدح المؤتمن حيدرة بن فاتك: (بحر الكامل).[2]

وصل الكتابُ فكدتُ من فرجٍ به أوهِى يمينَ رسوله تَقــبْيلا
فكأنني ظمآن ضَلَّ بقَفــرْةٍ حتى انتهى يأسا أصاب النيلا
وأظنُّ مولاي اقْتَدَى بمقالِ مَنْ نَظم القريضَ وأَغْرَب التأويلا
لولا طِرادُ الخيل لم تكُ لذةٌ فتَطارَدِى لي بالوصال قليلاً

ففي هذه القصيدة تناص ذاتي مع قصيدة مدحه للشيخ الأجل عندما وصلته رسالة من أبي الصلت أمية بن عبد العزيزفقال[3] :(بحر الكامل)

فكأنني ظمآن ضلَّ بقَفْزةٍ حتى انتهى يأسا فصَابَ النِّيلا
من بعد مطْلٍ حتى كاد أن يَضْحى به رَبْعُ الرجاء بخيلا
وكأنّ مولاىَ اقتدى بمقالِ مَن نَظم القَريضَ وأَغْرَبَ التأويلا
لولا طِرادُ الخيل لم تكُ لذةٌ فتَطارَدِى لي بالوصال قليلاً

---

[1])تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م،ص٤٥.

[2])ديوان ظافر الحداد: ص٢٦١

[3]) ديوان ظافر الحداد: ١٨٣

فنلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر تناص مع ذاته تناصًا مباشرا، فنقل نفس المعنى ونفس الكلمات مع تغيير طفيف في بعض الكلمات؛ لفرحه بوصول الطرد من الشيخ الأجل إليه،فهو من فرحته بالخطاب كاد أن يقبل يد الرسول، ويصف نفسه بالظمآن الذي بلغ به العطش وضل الطريق وبلغ به اليأس مبلغه وأخيرا أصاب النيل ، ففرحه بوصل الخطاب كفرحه ببلوغه الماء بعد عطشه، ولشدة فرحه بالخطاب استشهد بأبياته مرة ثانية.

ومن تناصه ذاتيا قوله[1] في الوعظ: (بحر المديد)

يَجْرِع الإنسانُ لذتَها وهْي مثلُ السمِّ في العسل.

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة[2]: (بحر الطويل)

ومن عاش في الدنيا طويلاً تَكررتْ عليه مَسَراتٌ لها وفَجائع
لَعَمْرُك ما ساوَى البقاءُ أقلَّ مـا يكابِده فيها الفتى ويُصارِع
حَلا فهْو مثلُ الشهدِ في فم زائقٍ يَلَذُّ وفي اثنائه السمُّ ناقِع

فنلاحظ في هذا البيت أن الشاعر تناص مع ذاته تناصًا مباشرا من خلال استلهامه(مثل السم في العسل) ولكنه غير في البيت، فالشاعر في القصيدة الأولى يتحدث عن الوعظ في الدنيا ولابد أن يتوقع بغة الأجل، وأن الناس لاهية في الدنيا من خلال الكسب والهوي، ويتذوق الإنسان لذتها وهي مثل السم في العسل، فهذا المعني مأخوذ بعمق ودلالة أكثر من النص المتناص معه الذي يتحدث عنه في القصيدة الثانية الذي يعتذر لصديق له بالإسكندرية وقد أنفذ إليه يعتب لأجل الانقطاع عن كتبه فقال له من عاش في الدنيا يرى المسرات والفواجع وأن الإنسان

[1])المصدر نفسه:ص٢٤٨.
[2]) ديوان ظافر الحداد: ص٢٠٠.

لاهي في الكسب والهوي فالدنيا فانية، والمعنى واحد وهو كأنه يريد بأنهم يدس لهم السم في العسل.

ومن تناصه ذاتيا قوله١: (بحر الطويل)

وإني لأَبكى سالفاتٍ تَصرَّمتْ لنا مثلَ ما تبكي الحمام السَّواجع

فالشاعر يمدح الأفضل ويطلب منه رضاه عنه ، وإن لم ينل رضاه فيبكي كما تبكي الحمام السواجع.

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة٢: (بحرالطويل)

تَعمَّرتِ الدنيا بشكرِك والْتَهَى به أهلُها حتى الحمام السَّواجع

فنلاحظ في هذا البيت أن الشاعر تناص مع ذاته تناصًا مباشرا من خلال مدحه للأفضل أيضًا وأن الدنيا تعمرت بوجوده وانشغلت الناس به حتى الحمام السواجع، فالقصيدة الأولى توضح بكاء(الحمام السواجع)على الأفضل، والقصيدة الثانية تبين فرح (الحمام السواجع)بالأفضل وبين البيتين طباق إيجاب.

ومن تناصه ذاتيا قوله٣: (بحر البسيط)

وصاغَك اللهُ في خَلْقٍ وفي خُلُق مِلْءَ القلوبِ وملء السمع والبصر

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة٤: (بحر البسيط)

فقد تكاملت في خَلْقٍ وفي خُلُق حتى تنافس فيك السمع والبصر

---

[١]) ديوان ظافر الحداد: ص١٩٩.

[٢]) المصدر نفسه: ص١٩٠.

[٣]) المصدر نفسه: ص١٤٩.

[٤]) ديوان ظافر الحداد: ص٣٥.

فالشاعر يمدح الأفضل في البيتين ويتناص ذاتيا في الألفاظ والمعاني بأنه مكتمل من الصفات البشرية حتى البصر والسمع يتنافسان فيه لشدة اعتنائه برعيته وشدة حب الناس له.

ومن تناصه ذاتيا قوله١: (بحر الطويل)

وأُكبر مقدارِ الهوى عن كبيرة وأحمِي عفافي دونَها وأَذود
غَداةَ أُلبِّي الحبَّ من غيرِ ريبةٍ على أنّ شيطانَ الغرام مَريد

وفي هذا البيت الأخير تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة٢: (بحر البسيط)

والشعرُ تَلْقينُ شيطانِ الغَرام فلا يُمْلِي غَرائبَه إلا لمن نَسَبا
إلا مَدائحَ شاهِنْشاهَ لا بَرِحتْ تُشرِّف اللفظَ والمعنى إذا اصطحبا

فالشاعر يمدح الأجل الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش، وبدأ قصيدته بالغزل ، وهناك تناص ذاتيا مع (شيطان الغرام)في القصيدتين ، فالشاعر الذي يحب ويكتوي بناره لا يملى غرائبة إلا مدحه للأفضل .

ومن تناص الشاعرذاتيا أيضا قوله في القناعة ٣: (بحرالبسيط)

ما أَسْعَدَ المرءِ تُغْنيه قَناعتُه عن كل مُقتدِر بالمال والجاه
يَزيده الفقرُ عزا فهْو يُبطن ما يَقضِي بذلٍّ ويُبدِي حالَ تَيّاهِ

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة يحذر من صحبة أهل الشر، ومن غوائل الدنيا٤: (بحر المتقارب)

ففُزْ بالقناعةِ كنزا يَقيك ويُغنيك دون حسودٍ مُسام

---

[١]) المصدر نفسه: ص١٠٦.
[٢]) ديوان ظافر الحداد: ص٣٥.
[٣]) المصدر نفسه: ص٣٤٨.
[٤]) المصدر نفسه: ص٢٩٥

ويتناص ذاتيًا أيضا مع قول في القناعة[1]: (بحر المنسرح)

يا راغبا في غِنىً وكـنْزِ وكيمياءٍ بغيرِ رَمْزِ
وقعتَ عندَ الخبير فاسمعْ نصيحتي غيرَ مستفَزْ
قناعةُ المـرءِ كيـمياءٌ صَحَّتْ وكنزٌ وأيُّ كنز
فاسعَدْ بها مكسبا وأَنفِقْ ما شئتَ منها بلا تَجزِّى

فالشاعر يتحدث عن القناعة وأنها كنزنفيس وأن الانسان يعيش غني عزيز النفس إذا رضى بما قسم الله له فالقناعة كنز لا يفنى.

ومن التناص الذاتي أيضا قوله في قصيدة يبكي شبابه الزائل ، بكاءا شديدا، بحيث يعض أنامله حسرة عليه فقد زال ولايعود، فلا فائدة في البكاء والنحيب فقال[2]: (بحر الكامل)

أَسِفى على زمنِ الشبابِ الزائلِ أسفٌ أُديم عليه عَضَّ أناملي
ولَّى فلا طمعٌ بعَطْفَةِ هاجرٍ منه ولا أَمَلٌ لأَوْبَةِ راحـل

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة وهو بمصر يعتذر لصديق له بالإسكندرية وقد أنفذ إليه يعتبه لأجل الانقطاع عن كتبه[3]: (بحر الطويل)

فيا أهلَ وُدِّى هل لمن بانَ عنكمُ إلى عودةٍ في مثلِ ما كان شافع
فلي بعدَكم شوقٌ أَثار تأسُّفنا يُصغِّر عندي كلَّ ما أنا صانع
فما بكثيرٍ قَرْعُ سِنِّى لأجلـه ولا بعظيمٍ أنْ تُعَضَّ الأصابع

---

[1]) المصدر نفسه: ص١٦٤

[2]) ديوان ظافر الحداد:ص٢٤٧.

[3]) ديوان ظافر الحداد: ص٢٠١

ويتناص ذاتيًا أيضا مع قول في الكانون١: (بحر الطويل)

تأملْ ففي الكانونِ أعجبُ منظرٍ إذا سَرَحتْ في فحِمه جمرةُ النار
كما مَيَّل الدنَّ المروَّقَ ساكبٌ فدَبَّ احمرارُ الخمرِ في حَلَك القار

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة ٢: (بحر الكامل)

انظُرْ إلى ما ضُمِّن ال كانونُ من فحمٍ وجَمْرْ
هذا يزيد وذا يَبي د كما انْطَوَى ليلٌ بفَجرْ
فكأنها رُسُلُ الوصا ل تَواترتْ بزَوال هجر
أو كالعُقودِ تَضمَّنتْ نوعين من سَبَجٍ وشَذْر
أو جمرةِ الوَجَنات لا ح شَقيقُها في آسِ شَعر
يَلْجا إلى الكانونِ في كانونَ مُفْتقِرٌ ومُثْر
فمُقامُه في البيتِ أنـ فعُ فيه من نَمَطٍ وسِتر

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة٣: (بحر البسيط)

انظُرْ إلى الفحم في الكانون حين بَدا سوادُه فوق مُحْمَرٍّ من اللَّهَبِ
تَخالُ ما لاحَ من حُسْنِ اجتماعِهما لمْحامن البرقِ في جَوْنٍ من السُّحُب
أو عِمّةً من حِدادٍ لم تَعُمَّ ولم تَسْتُر قَلَنْسُوةَ حَمْرا من الذَّهب

فالشاعر يصف الكانون الذي يحتوي على فحم وجمر، ويشبه اللهب الناتج عنهما بنور الشمس في أطراف الظل في القصيدة الأولى، وجاء في القصيدة الثانية وذكر الفحم في الكانون محمر من اللهب وهو كالبرق في جون السحب فيظهر لون كالحمرة والمعنى واحد في القصيدتين

---

[١]) المصدر نفسه: ص١٣٦

[٢]) ديوان ظافر الحداد: ص١٣٥

[٣]) ديوان ظافر الحداد : ص٦.

ويتناص ذاتيًا أيضا مع قول الشاعر في مدح الأفضل١: (بحر الطويل)

لأَنت سماءُ الفخرِ والناسُ تحتَها نباتٌ له معروفُ كَفِّك زارع

وفي هذا البيت تناص ذاتي مع بيت شعري له في قصيدة يمدح المأمون٢: (بحر الكامل)

من يزرعِ المعروفَ زَرْعَك للنَّدى لا شكَّ مثلَ حصيدِ سَعْدِك يَحْصُد

فالشاعر يمدح الأفضل في القصيدة الأولى فهو سماء الفخرمن جوده وكرمه وهو يزرع المعروف والناس حوله يحصدونه، وأيضًا يمدح المأمون بأنه يزرع السعادة للناس ويهتم بهم ويكرمهم فكل واحد مسئول عن رعيته

ولما تحدث الشاعرعن مدح الملك الإمام الحافظ استدعى حادثة مهمة في التاريخ الإسلامي وهي "حادثة الإسراء والمعراج" فيقول ظافر٣: (بحرالمتقارب).

لِهذا الجلال الذي لا يــرُامُ مَعانٍ تَحَيَّر فيها الكــلامُ
وقد طَوَّلت وصفَها المادِحون وأقصرُ ما مرَّ فيها التَّمام
فيا ابنَ البَتولِ سليلَ الرسولِ أبوك الوَصِيُّ وأنت الإمام
أبوك الذي سار فوق البُراقِ وفي يد جِبريلَ منه زمـام
فلما انتهى سِدْرَةَ الْمُنْتَــهى مَقاما له جَلَّ ذاك المَقــام
دنا قابَ قوسَيْن من ربـــه على يقظةٍ لم يَشُبْها مـنام
فما كذب القلبُ ما قــد رآه فهل حُجّةٌ في خلافٍ تُقـام
فضائلُ جاء بهنّ الكتـــاب وآياتُه المُحكَمات العِظـام.

استحضر ظافر شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم)وشخصية جبريل عليه السلام وحادثة معجزة الإسراء والمعراج ببعض تفصيلها ،وفي هذا إشارة إلى شرف

---

١) المصدر نفسه: ص١٩٠

٢) المصدر نفسه:ص١٢٢

٣) ديوان ظافر الحداد:صـ٢٩١.

نسب الممدوح(الملك الإمام الحافظ)حيث يمتد نسبه إلى السيدة فاطمة (رضي الله عنها)بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)،وعظم المعجزة.

وفي هذه القصيدة تناص ذاتي مع قصيدة أخرى يمدح فيها الإمام الحافظ مرة ثانية [١]: (بحر الكامل).

أنتَ ابنُ من ركب البُراق إلى العُلا ... ليلا يَؤمُّ عيانُهـا الأعيانـا
وأمامه جبريلُ حتى استفتحـا ... بابَ السماءِ فجاوزاه وبانـا
حتى حَوى أقصى مقامٍ ما حـوَى ... من قبله ملكـا ولا إنسانـا
ودَنا فكان كقاب قوسَيْ حاجـبٍ ... في القربِ بل أدنَى هناك قِرانا

وأطلق على الممدوح لقب ابن البتول إشارة إلى شرف نسبه وشرف عائلته وطهره وطهر أصله.

[١] ديوان ظافر الحداد: ٣٢٣.

تناص الموضوعات:

وجدت الكثير من الموضوعات تكررت في هذا الديوان ومن بين هذه الموضوعات:

اسم الموضوع	رقم الصفحة
الشيب والشباب	ص١٧٦،ص١٩٦،ص٢٤٦،ص٢٤٧،ص٢٧٠،ص٣٤٣،ص٣٤١ ص١٣،ص١٤،ص٣٠
الموت	ص١٣٧، ص٢٥٠، ص٣٤٨
الوعظ والزهد	ص١،ص٢٤٣،ص٢٤٨،ص٢٩٤
القناعة	ص٢٩٥،ص٢٥٠،ص٣٤٥،ص٣٤٨ ص٨٣،ص١٦٤،ص١٨٩
الفحم والكانون	ص٦،ص٩٠،ص١٣٧،ص٢٤٤
ذم الدنيا	ص١٣٩، ص١٥٨،ص٣٣٣
نسيان أبي عامر	ص١٨،ص١٦٦،ص٢٥٠،ص٣٢٩
الصداقة	ص٢٢٦،ص٢٣٨،ص٢٧١،ص ١٩٨، ص٢٢٠
الحنين الى الوطن	ص١٦٧،ص١٩٦،ص٢٠٩،ص٢١٠،ص٢١٢، ص٣٠،ص٩٧،ص١٠١،ص١٤٣

ومن الملاحظ تناص الشاعر في شعره تناصا ذاتيًا وكان ذلك واضحا ، كان في المفردات والتراكيب كما كان في الموضوعات كالقناعة والموت والشيب والفحم والكانون والوعظ والزهد، وكان أكثرفي الموضوعات ممايدل دلالة قاطعة على أن ظافر تناص مع نفسه مع الابتكاروالتجديد في المضمون دون التكرار.

التناص الأسطوري

التناص الأسطوري(الميثولوجي):

تعد الأسطورة رفيقة للشعر العربي منذ العصر الجاهلي منه إلى العصر الحديث، فاستعار شعراء العصر الجاهلي " عوالم" أسطورية لا أساس لها، هي محض خيال جامع ، تغذية الطبيعة "الماورائية"، علهم يسكبون في القصيدة خيالات" عقل أسطوري" لا تحده الصحراء الواسعة ، أو ربما هم الآخر كانوا يهربون إلى واقع شعري موغل في حريته لا توفره مفردات اللغة وحدها، فاستعانوا عليه بالأساطير، ورغم تجذر الأسطورة في عصور كثيرة من تاريخ أشعار العرب، فإن مرحلة سبيعينات القرن الماضي ولدت مدارس شعرية أعادت لاستلهام "الأساطير" في القصائد مجده.

الأسطورة لغة واصطلاحاً:

لغة: وردت لفظ الأسطورة في المعاجم العربية من الفعل سطر، والسطر هو الصف من الكتاب والشجر والنخيل،ويعرفها ابن منظور بقوله:" والأساطير: الأباطيل، والأساطير إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل"[١].

وقد وردت في القرآن الكريم بصيغة الجمع في قوله تعالى:" وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ۙ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"[٢].

---

[١]) ابن منظور، جمال الدين بن محمد بن مكرم المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج٢، مادة سطر، ص ١٤٣.

[٢]) سورة الأنفال:الآية ٣١.

اصطلاحا:

تباينت الآراء في وضع تعريف موحد للأسطورة، ولعل أبسط هذه التعريفات وأكثرها عمومية وشمولية هو مفهوم "باور" الذي يرى أن:" مفهوم الأسطورة يشمل كل ما ليس واقعياً، أي كل مالا يصدقه عقل، فكل قصة تعتمد على أسس غير عقلية، أو تبرر بمبررات غير عقلية لا يكون ثمة شك في أنها نتاج لخيال أسطوري"١.

فالأساطير والحكايات الخيالية لها وقع كبير في مخيلة أكثر الشعراء،فقد تناص الشعراء مع هذه الأساطير، ليجسدوا الرؤية الفكرية في مخيلتهم، ويشير الدكتور(أحمد الزعبي) إلى التناص الأسطوري ويرى أنَّه: " استحضار الشاعر بعض الأساطير القديمة وتوظيفها في سياقات قصيدته لتعميق رؤية معاصرة، يراها الشاعر في القضية التي يطرحها فيستعين بأسطورة ما، تعزز هذه الرؤية، بحيث يأتي هذا التناص أو التوظيف أو الإستعانة بالأسطورة منسجماً في سياق القصيدة، وفيه ثراء وتجديد وتعميق للأبعاد الفكرية والفنية فيها"٢.

ويعرفها الدكتور"أنس داود"بقوله:"الأسطورة مجموعة من الحكايات الطريفة المتوارثة من أقدم العهود الحافلة بضروب من الخوارق والمعجزات التي يختلط فيها الخيال بالواقع، ويمتزج عالم الظواهر بمافيه من إنسان وحيوان ونبات ومظاهر طبيعية، بعالم ما فوق الطبيعة من قوى غيبية اعتقد الإنسان بألوهيتها، فتعددت في نظرة الآلهة تبعا لتعدد مظاهرها المختلفة"٣.

---

١)علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، صـ١٧٥.

٢)أحمد الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقياً، صـ٩٥.

٣)د/أنس داود: ألأسطورة في الشعر المعاصر، مكتبة عين شمس، القاهرة، د.ط، ١٩٧٥م، صـ١٩.

ونستنتج من ذلك أن الأسطور قصة تحكمها مبادىء السرد القصصي، من حبكة وعقدة وشخصيات، محافظة بذلك على ثباتها منذ فترة طويلة من الزمن تناقلتها أجيال، ولجوء الشاعر إلى الأسطورة كما يرى الدكتور عز الدين إسماعيل:" دليل على عمق نظرةٍ في فهم طبيعة الشعر والتعبير الشعري "[١] ؛ وذلك لأن العلاقة بين الشعر والأسطورة علاقة قديمة منذ العصر الجاهلي.

وسنحاول حصر التناصات الأسطورية الواردة في الديوان وهي:

١)أسطورة نجم الثريا:

لقد أشار ظافر الحداد إلى استدعاء النجوم والكواكب في ديوانه؛ وإن استدعاء هذه النجوم يجعلنا نعود إلى البعد الأسطوري الذي تشير إليه هذه النجوم، ومن الأساطير العربية القديمة أسطورة نجم "الثريا"[٢] التي عبدتها قبيلة طي [٣]، والتي أتى بها الشاعر في مقطوعة يشبه الليل والنجوم فيقول ظافر[٤]: (بحر الطويل).

كأَنّ نجوم الليل لما تَبلَّجــتْ تَوَقُّدُ جَمْرٍ في سَواد رمـــادِ

حكى فوق مُمتدِّ المَجَرّةِ شكلُها قَواقعَ تطفو فوقَ لُجّــةِ وادِ

وقد سَبَحتْ فيه الثُّرَيا كأنهــا بَنيقةُ وَشْيٍ في قميصِ حِداد.

---

[١]) عز الدين إسماعيل،الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية القاهرة،ط٦، ٢٠٠٣، ص٢٠٤.

[٢]) الثريا: ستة كواكب مجتمعة أشبه ما تكون بعنقود العنب، وزعم بعضهم بأنها سميت بذلك؛ لأن المطر الذي يمطر بنوئها تكون منه الثروة، وهي الغنى، ينظر : البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، الآثار الباقية عن القرون الخالية، مكتبة المثنى، بغداد، صـ ٣٤٢.

[٣])الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب،ط٣، تحقيق: محمد بهجت الأثري، مطابع دار الكتب، مصر، جـ٢، صـ٢٤٠، إسماعيل ، أحمد النعيمي، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ٢٠٠٥م، صـ١٨٩.

[٤])ديوان ظافر الحداد:صـ٩١.

فنرى ظافر في هذه الأبيات يشبه نجوم الليل عند تبلجها بالجمر المتوقد في رماد أسود وشبه نجوم السماء المجرة بالقواقع فوق لجة واد وكذلك شبه الثريا المضيئة في سماء الليل المظلم كتطريز مزخرف في جوانب ثوب أسود.

لقد تناص ظافر الحداد مع أسطورة(الثريا)،لكي يشبه النجوم والليل وقد ورد في الأساطير العربية أن"الدبران[1] خطب الثريا، وأراد القمر أن يزوجه بها، فأبت عليه، وولت عنه، وقالت للقمر ما أصنع، بهذا السبروت الذي لا مال له، فجمع الدبرانقلاصة يتموَّل بها، فهو يتبعها حيث توجهت، يسوق صداقة قدامها"[2]، غير أن" العيوق" [3]عاق الدبران عن لقاء الثريا وكانت العرب تتشاءم من الدبران وتتفاءل بالثريا، لذلك اتخذ ظافر الحداد من الثريا دلالة لتشبيه الليل والنجوم.

٢) أسطورة زرقاء اليمامة[4]:

وظف الشاعر ظافر الحداد أسطورة" زرقاء اليمامة" في قوله[5]

لقد وضف ظافر الحداد أسطورة زرقاء اليمامة في القصيدة لأنها كانت تنبأ بالشيء

---

[1])الدبران: كوكب أحمر منير يتلو الثريا، ويسمى دبراناً لأنه استدبر الثريا،ينظر: البريوني، الآثار الباقية،صـ٣٢٤.

[2])الأصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمدالراغب،محاضرات الأدباء ومحاورة الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة،بيروت، ١٩٦١م،ج٢،صـ٥٤١.

[3])العيوق: كوكب أحمر مضيء يطلع قبل الجوزاء في ناحية الشمال، ابن منظور، لسان العرب ،مادة" عوق".

[4])زرقاء اليمامة:" إمرأة كانت باليمامة تبصر الشعرة البيضاء في اللبن، وتنظر الراكب على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تنذر قومها الجيوش إذا غزتهم،فلا يأتيهم جيش إلا وقد استعدوا له، حتى احتال لها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه فقطعوا شجراً وأمسكوه دمامهم بأيديهم، ونظرت الزرقاء فقالت:إني أرى الشجر قبل أقبل إليكم؛ قالوا لها: قد خرفت ورقّ عقلك وذهب بصرك، فكذبوها، وصبحتهم الخيل، وأغارت عليهم، وقتلت الزرقاء، قال: فقّوروا عينيها فوجدوا عروق عينيها قد غرقت في الإثمد من كثرة ما كانت تكتحل به".(ابن عبدربه،١٩٩٠م،صـ٧٣:٧١). **وقد ذكرت ذلك في تناص الأعلام**

[5])ديوان ظافر الحداد:صـ١٠٥،١٠٣.

قبل وقوعه لجودة بصرها ولحدة نظرها وقد وصفها علي عشري زايد بأنها :" رمز أسطوري يعكس القدرة على التنبؤ واكتشاف الخطر قبل وقوعه، وتحمل نتيجة عدم الإصغاء إلى تحذيرها"[١]،وهذا يدل على ضرورة سماع النصيحة التي يقدمها الآخرون ذوو الخبرات السابقة، فقد حذَّرت اليمامة قومها إلا أنهم لم يصدقوها فكانت عاقبتهم وخيمة.

٣) أسطورة غراب البين:

يقول ظافر الحداد[٢]: (بحر الطويل).

ألوم غراب البين يومَ فراقهم وما هو إلا مركبٌ وقَلوص

يتحدث الشاعر في هذا البيت عن شخصية الغراب في القصص القديم حيث يربط الكثير من المصريين دائمًا بين التشاؤم ورؤية الغراب، نظرا لكون تاريخ الغراب مرتبط بذكريات سيئة، بداية من واقعة صراع غرابين، وقتل أحدهم للآخر في قصة قابيل وهابيل، والغراب الذي أرسله سيدنا نوح –عليه السلام– ليخبره عن مكان اليابس، لكي يرسو بالسفينة هو ومن معه بعد طول إبحار، فما كان من غراب إلا أنه ذهب ولم يعد مرة أخري، فسمي بغراب البين.

وفي تناص آخر مع الأسطورة يستدعي ظافر الحداد شخصية أسطورية أخري وهي:

٤)أسطورة العنقاء:

لقد وظف ظافر الحداد أسطورة طائر" العنقاء"[١]والذي يضرب به المثل في البعد والشتات" حلقت به عنقاءُ مُغرِبٌ"،وذلك في قصيدة يمدح فيها الأفضل ويهنئه بأول السنة ٢: (بحر البسيط).

---

[١]) علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص١٨٠.

[٢]) ديوان ظافر الحداد: صـ ١٧٧.

يخافُها القَدَرُ الجاري فتأمره بكلِّ ما تبتغيــه أمــرَ مُحتــكِم

تَبيتُ من أجلها العَنْقاءُ خائفةً والعُصْمُ في النِّيق والآسادُ في الأجَم.

لقد استحضر ظافر الحداد أسطورة العنقاء ليكني عن قوته وعزيمته، فالأفضل يمتاز بالقوة لدرجة أن العنقاء خائفة منه،والعُصم في النيق وكذلك الآساد في الأجم، وهذا يدل على عظم ومكانة الممدوح.

٦) أسطورة قوس قزح:

لقد استدعى ظافر الحداد أسطورة" قوس قزح" عندما أمره الآمر بعمل أبيات تكتب في مجلس أمر السلطان ببنائه في بستان بظاهر القاهرة يسمى البعل٣، وأمام المجلس بركة ماء واسعة يمدها نهر يشق المجلس، وهي محفوفة بأنواع الزهور

فقال ظافر٤: (بحر البسيط).

يُلقى إلى البركة الغَنّاء فائضَــه ماءً يشفُّ شَفيفَ الخمر في القَدح

حَكَتْ سماءً ولونُ الزَّهرِ يَشملُها قوسُ الغَمام الذي يُنْمَى إلى قزَح.

لقد اتجه ظافر إلى الطبيعة يستوحي منها صوره لتتضح أمام المتلقي في صورة فنية رائعة، فنراها يتحدث عن بركة ماء واسعة يمدها نهر يشق المجلس ؛لذا استحضر ظافر أسطورة " قوس قزح" لتظهر جمال هذة البركة التي يحفها الأزهار الملونة كما

---

[١]) العنقاء: طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم،وأغرب:أي صار غريباً، وإنما وصف هذا الطائر بالمُغرب لبعده عن الناس ولم يؤنثوا صفته لأن (العنقاء) اسم يقع على الذكر والأنثى، ينظر الميداني، مجمع الأمثال،ج١، صـ٢٠١.

[٢]) ديوان ظافر الحداد:صـ٢٧٨.

[٣]) أرض البعل كانت بجانب الخليج الغربي متصلة بأرض الطبالة في كوم الريش، وأنشأ فيها الأفضل منظرة من أجل منتزهاتهم.

[٤]) ديوان ظافر الحداد: ٨١.

يظهر قوس قزح الملون الرائع في السماء عند وقت المطر والماء الصافي في البركة كماء الخمر في القدح.

٧)أسطورة الجُرهميّ ابن مضاض:

لقد استدعى الشاعر ظافر الحداد أسطورة "الجُرهميّ ابن مضاض" ١الذي كان متغرباً عن بلدته ٣٠٠سنة،فأسقط شخصية بن مضاض على نفسه في هذه الأبيات التي تتحدث عن حنينه إلى الإسكندرية التي تركها ظافر وسكن في الفسطاط حيث قال٢: (بحر الطويل).

أنا ابْنُ مُضاضٍ وهْي أوطانُ جُرْهُمٍ فلا فرقَ في طول التفرّق بيننا

اتكأ ظافر الحداد على شخصية "ابن مضاض"٣ ،فظافر الحداد استدعى هذه الشخصية التاريخية وأسقطها على نفسه حيث أنه يحن إلى بلدته الإسكندرية بعد تركه إياها وسفره إلى القاهرة وهذا يشير إلى الإنتماء إلى الأصل

.لقد استخدم ظافر الحداد جملة(أنا ابن مضاض) ليسقطها على نفسه لأن ابن مضاض ترك بلدته مكة وكان ملك لها أكثر من ٣٠٠ سنة وعاش في تيه إلى أن رجع إليها بعد ذلك ووألقى ربه ودفن في بلدته، فكذك ظافر ترك الإسكندرية فترة طويلة وعاش في الفسطاط بحثاً عن لقمة عيشه، ثم عاد إلى بلدته الإسكندرية وأبى

---

١) يريد الحارث بن مضاض الجرهمي، الذي تقول الأساطير العربية إنه عاش ٤٠٠سنة، جال في الأرض منها ٣٠٠ سنة متغرباًبعد هلاك قومه بني جرهم(التيجان لوهب بن منبه ٢٠١) ديوان ظافر الحداد: صـ٣٤٧. **وقد ذكرت ذلك في تناص الأعلام**

٢) ديوان ظافر الحداد: ٣٤٧.

١)الحارث بن مضاض الجرهمي، الذي تقول الأساطير العربية أنه عاش ٤٠٠سنة، جال في الأرض منها ٣٠٠ سنة متغرباً بعد هلاك قومه بني جرهم(التيجان لوهب بن منبه ٢٠١) وهو يقصد المضاض بن عمرو بن سعد بن الرقيب بن ظالم بن هيّ بن بَيّ بن جُرْهُم بن قحطان بن هود هو والد بنت المضاض زوجة إسماعيل وأم أولاده. تولى زعامة مكة بعد وفاة نبط و قيدار ابني إسماعيل، وجده جرهم، وهذا يشير إلى وحدة الأصل والنسب والانتماء رغم بعد المكان والفرع في النسب حيث أنه عربي من ولد إسماعيل وبنت المضاض الذي ينتهي نسبه إلى جرهم أصل القبيلة المعروفة.، ديوان ظافر الحداد: صـ٣٤٧

القدر أن يمنح ظافرا الأمنية الأخيرة في حياته، والتي بقى يحلم بها في شيخوخته ، وتهفو إليها نفسه ، ويتوفى فيها سنة٥٢٩هـ.

٨)أسطورة شيطان الشعر:

لقد استحضر ظافرالقصة الأسطورية عن "شخصية شيطان الشعر"[١] المتعلقة بوادي عبقر، وذلك في مدح ظافر الحداد وتهنئته بشهر رجب فقال[٢]: (بحرالبسيط).

والشعرُ تَلْقينُ شيطانِ الغَرام فلا يُمْلِي غَرائبَـه إلا لمـن نَسَبـا

إلا مَدائحَ شاهِنْشاهَ لا بَرِحـتتْ تُشرِّف اللفظَ والمعنى إذا اصطحبا.

لقد استحضر ظافر شخصية شيطان الشعر الأسطورية فهو يقول بأن الشعراء لا يقولون الشعر من تلقاء أنفسهم إلا مدائح شاهنشاه(الأفضل) تشرف اللفظ والمعنى إذا إصطحبا، وهذا يدل على مكانة الممدوح وعلو شأنه ومكانته.

ويتضح مما سبق أن الشاعر ظافر الحداد تناص مع الأسطورة ووظفها في ديوانه، واستقى منها ما يخدم شعره في إخراجه في أحسن صورة،حتى يظهر للمتلقي النصوص المتداخلة بدون كسر أو قيود، وهي من المصادر المهمة لدى الشاعر، وهي وسيلة فعالة لتوسيع خيال الشاعر، وتساعده في التعبير عن أحاسيسه وعواطفه وتعميق معانيه الشعرية وتنويع صورة الفنية.

[١])شخصية شيطان الشعر الأسطورية: أي أنَّ الشعراء لايقولون الشعر من تلقاء أنفسهم أومن قريحتهم الخاصة، بل يدخل جني أو شيطان هو الذي يلهم الشاعر الشعر والقصائد، فيصبح عندها الملقن مسحوراً، فهو من ناحية بشري/انسي ، لكنه من ناحية أخرى جني/ ساحر، وطالما اعتبر التراث العربي الشاعر مسكون من قبل الجن بل من قبل جنية الشعر.

[٢])ديوان ظافر الحداد: صـ ٣٥.

الخاتمة

الحمد لله على كمال النعمة، وتمام المنة، فله الحمد في الأولى، وله الحمد في الآخرة، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

وفي ختام دراستي للتناص الذاتي والأسطوري في شعر ظافر الحداد السكندري لا يسعني إلا أن أحيي فيه صوت الحق الصادح بأسمي المشاعر الإنسانية، وإبداع الفنان المتفاعل مع أحداث عصره، وأسجل أنه كان شاعراً كبيراً لا تعوذه البراعة، ولا ينقصه الإبداع، وقد توصلت بتوفيق الله وتوجيهات مشرفي إلى عدد من النتائج أجملها فيما يلي:

١) كشفت الدراسة في مجال التناص الذاتي أن الشاعر تناص مع نفسه في المضامين والأساليب والصور والمفردات التي تخدم أفكاره الشعرية.

٢) كشفت الدراسة في مجال التناص الأسطوري من خلال الإستدعاء بعض الرموز، وإسقاطها على الواقع، وتوظيفها توظيفاً عصرياً.

٣) لم يختلف العلماء والمؤرخون في لقب واسم ظافر الحداد السكندري، وأظهرت الدراسة ملامح شخصية ظافر الحداد، فقد كان رجلاً صالحاً، كريم النفس، واسع الثقافة، متعدد المواهب، غزير الإنتاج الأدبي والفكري.

٤) كشفت الدراسة عن مقدرة ظافر الحداد الفائقة في نظم الشعر في الموضوعات والأغراض المتعددة، وبصفة خاصة في غرض المدح الذي احتل القسم الأكبر من ديوانه.

المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم.

ثانيًا: المصادر

١. ديوان ظافر الحداد (ابن الإسكندرية)، تأليف د/ حسين نصار، الناشر: مكتبة مصر، ١٩٦٩م، دار مصر للطباعة، ص(و،ز) في المقدمة.

ثالثا: المراجع:

١) د/ محمد دياب محمدغزاوي، المعارضات النثرية، أطواق الذهب للزمخشري نموذجا ، دراسة أسلوبية إحصائية مقارنة،دار الثقافية للنشر،٢٠١٦م، ص١٦٦،ص١٦٧.

٢) سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ط٣، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب، ٢٠٠١م، ص١٢٣.

٣) تداخل النصوص في الرواية العربية، حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م،ص٤٥.

٤) ابن منظور، جمال الدين بن محمد بن مكرم المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ج٢، مادة سطر، ص ١٤٣.

٥) الألوسي، محمود شكري، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب،ط٣، تحقيق: محمد بهجت الأثري، مطابع دار الكتب، مصر، جـ٢، صـ٢٤٠، إسماعيل ، أحمد النعيمي، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ، ٢٠٠٥م، صـ١٨٩.

٦) الأصبهاني، أبو القاسم حسين بن محمدالراغب،محاضرات الأدباء ومحاورة الشعراء والبلغاء، دار مكتبة الحياة،بيروت، ١٩٦١م،ج٢،صـ٥٤١.

٧) علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، صـ١٧٥.

٨) أحمد الزعبي، التناص نظرياً وتطبيقياً، صـ٩٥.

٩) د/أنس داود: ألأسطورة في الشعر المعاصر، مكتبة عين شمس، القاهرة، د.ط، ١٩٧٥م، صـ١٩.

١٠) عز الدين إسماعيل،الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، المكتبة الأكاديمية القاهرة،ط٦، ٢٠٠٣، ص٢٠٤.